

الأمثال الشعبية وصناعة القيم في الرواية الجزائرية: "رواية جسر للبوح وآخر للحنين" للروائية زهور ونيسي- نموذجاً

Folk proverbs and the creation of values in the Algerian novel :The novel "A Bridge for a Word and Another for Nostalgia" by the novelist Zohur Ouenissi - a model.

كعائشة واضح

Oumyoussef2013@gmail.com

جامعة غليزان/ الجزائر

تاريخ النشر: 2023/01/10

تاريخ القبول: 2022/12/21

تاريخ الاستلام: 2022/11/20

ABSTRACT:

ملخص البحث

This scientific study examines the relationship of Algerian contemporary narrative to the Algerian people's heritage, which is one of the most important elements of cultural identity, and the inexhaustible asset of wisdom, authenticity, noble values and lofty principles on which the community lives.

The novel Zohur and nostalgia is a model for engagement and the development of the positive values of Algeria's homosexual and folk discourse, by which the narrator expresses her main and secondary characters.

Keywords: Algerian Contemporary Novel - Positive Values - popular proverbs speech- Bridge to Pornography and Another to Nostalgia- Cultural Identity- People's Heritage.

تتناول هذه الدراسة العلمية علاقة الرواية الجزائرية المعاصرة بالموروث الشعبي الجزائري، والذي يمثل أحد أهم مقومات الهوية الثقافية، والمعين الذي لا ينضب لاستمداد الحكمة والأصالة والقيم النبيلة والمبادئ السامية التي يحيا عليها المجتمع المحلي.

وكانت رواية "جسر للبوح وآخر للحنين" للروائية زهور ونيسي نموذجاً للاشتغال واستنباط القيم الإيجابية التي يحملها الخطاب المثلي الشعبي في الجزائر، والذي عبّرت به الساردة على لسان شخصياتها الرئيسية والثانوية .

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية المعاصرة- القيم الإيجابية- الخطاب المثلي الشعبي - الهوية الثقافية- التراث الشعبي.

مجلة لغة - كلام / مخبر اللغة والتواصل / جامعة غليزان (الجزائر)

1. مقدمة:

تمثل الرواية أحد الأنواع الأدبية الأكثر انفتاحا على الموروث الشعبي، كونه يتعلّق بماضي الشعوب وعاملا قوياّ لصدّ عمليات التغريب وطمس الهوية التي كانت ديدن المعتدين على مرّ العصور بالإضافة إلى أنّه منهلًا ثريًا يُستمدّ منه الحكمة والأصالة والقيم السامية فحاولت الرواية الجزائرية على وجه التحديد الاحتفاء بهذه المادة التراثية الشعبية والاعتراف منها والعمل على استلهاها عناصرها ممّا أكسبها أصالة وعمقا وتميزًا رفعها أعلى المدارج، وكانت الأدبية زهور ونيسي- المدرسة الأمّ التي تعبّر عن الأصالة والوطنية- من السّباقيين في توظيف الموروث الشعبي فعملت على إنشاء علاقة بينه وبين الرواية الجزائرية، لتبرز روايتها الأخيرة "جسر للبوح وآخر للحنين"¹ في حلّة سردية جديدة، تحمل بعدا تأصيليا واضحا.

والتّراث الشعبي أحد العناصر المكوّنة للهويّة الوطنية، والذي يشكّل تاريخ وثقافة أي شعب من الشعوب الضارب في الأعماق، والمتواصل بين الأجيال على مرّ الحقب والأزمان، ممّا جعله يعدّ منهلًا غزيرا يعزّز مبادئها وقيمها وأصالتها وانتماءها، يعبّر عن أدبها الشفوي وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها الشعبية وكلّ ما له صلة بثقافة المجتمع الواحد، فيجعله ينماز عن غيره من المجتمعات. وقد وظفت الأدبية أحد أشكال التعبير الشفوي الموغلة في القدم، والمتمثلة في المثل الشعبي. وسنحاول التعرف عليه وعلى القيم الإيجابية التي سعت إلى بثها في ثنايا رواية "جسر للبوح وآخر للحنين".

وبناء على ما سبق، يمكننا أن نطرح التساؤلات الآتية:

- كيف وظّفت الروائية زهور ونيسي المثل الشعبي في نصّها السردى "جسر للبوح وآخر للحنين"؟
- فيم تمثّلت القيم الإيجابية التي كانت ترمي إليها الكاتبة من خلال اشتغالها على المثل الشعبي في أثرها الرائع؟

وعليه، سأحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن أرفع اللثام عن هذه الرواية الجزائرية من خلال البحث في العلاقة التي تجمع المثل الشعبي الجزائري بالقيم الإيجابية.

2. تمهيد:

إنّ ما نراه من اللهات وراء الحداثة والعصرنة أمر حتمي لأي مجتمع من أجل مواكبة العصر والسير في ركب التقدم، لكن التميز الذي يصنعه هو التمكن من احداث معادلة التوازن التي تعمل على التحضر والانفتاح بالموازاة مع الحفاظ على الأصالة والهوية والخصوصية المهددة. فبرزت الذاكرة الشعبية تنبض بكل معاني الحياة، ليصبح الأدب الشعبي الأدب الفعلي للشعوب واللسان الناطق والمعبّر عن همومها.

3. الرواية الجزائرية:

ومما لا شك فيه أن الرواية تمثل " النوع الأدبي الوحيد الذي أصبح فيه قيم الروائي مشكلات جمالية في الأثر"²، كونها تصل موقف المبدع ورؤيته في الحياة بالجمال الفني فهي خطاب روائي يستدعي الحوار الدائم بين ضروب الخطاب والنصوص الأخرى، تنبني على انفتاح خطابها لیتضمن أشكالاً تعبيرية أخرى تقوم على السرد أو غيره ... ولذلك فإن النص أو الخطاب الذي يقدمه المبدع هو نتاج تفاعل نصوص لا حصر لها مخزونة في ذهن المبدع³. فهي بذلك خطاب يعكف على عملية الخلق والاكتشاف المتواصل الذي يهتم بتصوير شتى مناحي الحياة تصويراً دقيقاً من خلال الاشتغال والإفادة من النصوص الأخرى.

وقد برزت الرواية الجزائرية المعاصرة بشكل لافت للانتباه، لتشكل بذلك الممارسة الأدبية الأكثر حضوراً في السياق الثقافي بالجزائر، واستطاعت رغم حداتها أن تحقق تراكمات نصية لا يستهان به، بلغت به مرحلة النضج والتنوع والثراء من خلال التحولات الشكلية والأسلوبية والقوالب الفنية وتجريب عدة تقنيات لإثراء البنيات الروائية، لتسجل حضوراً مميزاً وجديراً على خارطة السرد الروائي العربي المعاصر⁴. فقد عرفت انفتاحاً كبيراً على مختلف الأشكال التعبيرية الشفوية التي مثلت النبع الغزير والغني بشتى صور الإبداع والطاقة الفنية والجمالية والقيم النبيلة الراقية.

4. مفهوم المثل الشعبي:

والأدب الشعبي هو أحد الأشكال التعبيرية الذي يمثل "ذاكرة الشعوب ووعمها الشفوي المحكي، والمرآة التي تعكس بصدق الماضي بكل ما ينزوي عليه من تقاليد وعادات اجتماعية وطقوس دينية ومشاعر فردية أو جماعية"⁵ عبرت عن قضاياها واهتماماته، فتبلورت في قوالب إبداعية متنوعة، وهو "الأدب الذي يصدره الشعب، فيعبر عن وجدانه، ويمثل تفكيره، ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية"⁶ وهو نمط من أنماط الوعي الشعبي والفني الذي عرف انعراجاً إيجابياً في المسار الأدبي، وهو ما جعل الأدباء والكتاب يعكفون على الاشتغال عليه والعمل على توظيفه في أعمالهم الإبداعية.

والأمثال الشعبية هي أحد أهم أشكال الأدب الشعبي الذي شاع بين جميع طبقات المجتمع، يعبر عن خلاصة التجارب الإنسانية، ويقدم أحكاماً صارمة في مختلف المواقف الحياتية والممارسات اليومية، ويعد وسيلة من وسائل التنشئة الاجتماعية التي تساعد على لترسيخ القيم الاجتماعية والأخلاقية وتعميقها في نفوس الأفراد والجماعات.

وهي بذلك تحيا وتشيع بين الشعب طالما كان لها وظيفة، فإذا لم تؤد تلك الوظيفة فإنها تختفي، ولا تجد الجماعة الشعبية حاجة إلى ترديدتها وتختفي من فولكلورها⁷، يعرفها أحمد أمين فيقول: "الأمثال الشعبية نوع من أنواع الأدب، يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة

الكنائية، ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب ... وأمثال كل أمة مصدر مهم جدا للمؤرخ الأخلاقي والاجتماعي، يستطيع كل منهما أن يعرف كثيراً من أخلاق الأمة وعاداتها وعقليتها ونظرتها إلى الحياة، لأن الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت عنها⁸ وترعرعت بين أفرادها، فاحتفوا بها وفوضوا لها سلطة التشريع العرفي.

والمثل الشعبي " أسلوب تعليمي أو تهذيبي شديد محكم الصياغة شائع الاستعمال ضمن العرف والتقاليد، فهو كقول القائل (حكمة الجماعة وانتاج فرد ذكي) كما أنه يرسم طريق السلوك أو العمل وطريق الحكم على الموقف"⁹. مما يجعله نمط من الأعراف التي توجه سلوك الأفراد وهو دلالة على قداسته وأهميته في أذهان الأفراد والجماعات.

5. مفهوم القيم:

وتجدر الإشارة إلى أن مصداقية المثل تكمن في التعبير عن الواقع من خلال تمييزه عن أنواع الأدب الأخرى في كونه بعيداً عن سيطرة الحكام وسطوتهم، فلا يستطيعون أن يوقفوا قوله أو يمنعوا انتشاره¹⁰. إذ يخضع هذا الابداع في ممارسته لمجموعة من القيم الأخلاقية الانسانية التي تعين الفرد على التكيف والانتظام سلوكيا داخل وحدات المجتمع .

هذه القيم التي تمثل "مجموعة من المفاهيم الجوهرية التي تمسّ العلاقات الإنسانية بكافة صورها وذلك لأنها ضرورة للمجتمع، إذ تمثل بذاتها معايير وأهداف يجب وجودها في كل مجتمع أيا كانت درجة تنظيمه أو تقدّمه"¹¹. فهي بذلك نظام المعايير السلوكية والأخلاقية التي استمدتها الفرد من الجماعة، وخبرها من ممارسات الحياة اليومية .

والقيمة "تصور وتقدير المجتمع للشيء المرغوب، وهو التصور الذي يؤثر في اختياراتهم وسلوكهم الاجتماعي، لاعتناقهم هذه القيمة، والقيمة مع تبني الفرد لها هي أيضا تبني مجتمعي، يحدد اختيارات أفراد المجتمع وما يجب فعله، وما يجب الامتناع عنه وكيفية الفعل"¹². فكانت بمثابة النظام الموجه للسلوك، والطاقة المحفزة للنشاط الفردي والجماعي.

بالإضافة إلى أنها "معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية وعامة وتتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة ويمتصها الفرد من البيئة الخارجية ويقوم منها موازين يبرر بها أفعاله ويتخذها هادياً ومرشداً"¹³ وهو ما يفسر أنها المثل العليا للمجتمع التي يستطيع الفرد من خلالها تصوّر العالم المحيط به وكيفية التعامل والتكيف مع الغير ضمن الجماعة الواحدة .

6. ملخص رواية جسر للبوح وآخر للحنين:

وقد تمّ اختيار رواية "جسر للبوح وآخر للحنين" التي تمثّل رائعة من روائع الأدبية والمبدعة، والرواية الناضجة والمكتملة للقلم الأنثوي الجزائري، ذلك أنها استطاعت أن تضع يدها على أسقام وعلل المجتمع الجزائري، فاتخذت نصّها الأدبي مرتكزا لإثارة جملة من التساؤلات العميقة والتي أسستها على قوام جمالي فني بديع.

ذلك أن الخطاب الروائي الجزائري تحوّل إلى وسيلة من وسائل بناء الإنسان الجزائري بالتصوّر المبدع القادر على التقاط سمات الواقع الاجتماعي المعيش وصياغتها صياغة دقيقة ومعقدة مع الخروج من ثنائية الشكل والمضمون قصد فهم الواقع وقراءة التاريخ وتجلية العالم ورؤيته داخل التشكل البنائي للنص الروائي المتكئ على حرية الكاتب الواعية¹⁴ الملتزمة بقضايا الشعب الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية.

طرحت الروائية رائعتها من خلال تقنية الاسترجاع، وقد جاءت على لسان شخصية البطل كمال العطار، حيث عاد إلى مدينة قسنطينة بعد غياب دام أربعين سنة، ليتفاجأ بالتغير الجذري لهذه المدينة: الأحياء السكان الذهنيات... فشعر بحمل الحاضر والحنين بذاكرته إلى الماضي الجميل ليسترجع صور طفولته مع والديه وجيرانه، فيخبرنا أن أباه كان شديد التعلق باللغة العربية، ينتمي لحركة النهضة الإصلاحية التي كان إمامها الفذ الباسل الإمام عبد الحميد بن باديس، وعن أمه التي لم تكن تشبه الأمهات- على حسب رأيه- في حمها الشديد له، كونه ابنها الوحيد.

ثم يعرّج بذاكرته إلى فترة شبابه بالمدينة العتيقة في عهد الاستعمار وعلاقته بصديق عمره مراد، فقد كان يمثل له الأخ الذي لم تلده له أمه رغم اختلاف طبيعتهما.

يعود كمال إلى الماضي ليستعيد صوراً من ذكرياته مع راشيل الفتاة اليهودية التي أحبها وفكر معها في المستقبل بجدية، لكنها قابلته برفضها اعتناق الإسلام عند عرضه عليها وعدم اكتراثها بمستقبل هذه العلاقة، إذ ما كان يهتمها من الأمر تلك اللحظات الجميلة الآنية التي كانت تقضيها بجانبه مما جعله يراجع حساباته ويدرك خطورة الموقف.

وبمجيء الثورة التحريرية وبرامجها ومخططاتها، وجد كمال العطار نفسه منخرطاً في صفوفها رفقة صديقه مراد، الأمر الذي وضع حداً لمشروعه العاطفي مع راشيل فغيرت فيه الكثير من التصورات، وجعلته يتخلى عن أفكاره السابقة لدرجة أنه أصبح يخجل منها ومن نفسه.

يستحضر البطل صورة نفيسة أخت صديقه مراد التي خطبتها له أمه وتزوجها رغم أن قلبه كان مع راشيل، وفي الوقت الذي قرر أن يحبها تنتقل إلى رحمة الله إثر ولادة عسيرة توفي معها ابنها وتحطم حلم كمال معها في طفلة شابة وطفله الموعود الذي كان حلم أمه وأبيه الطريح الفراش.

ثم يستعيد فاجعته الثانية إثر استشهاد صديقه "مراد" في أول معركة شرسة يقضى فيها عليه وافتقاده لمرآته التي انعكس فيها بصدق، والصديق الأخ الذي لم ولن يجد له مثيل.

ويعتمد بعدها على استرجاع نماذج بشرية مختلفة غابت عن المدينة الحبيبة نذكر منها: "خالتي زوينة الخضرا"، "عمي أعراب"، "عمي أحمد شمينو"، "حميد بن مسعودة"، "الجارة" "العارم" وزوجها "رابح"، "حمانة" "جعيدة".

إن كمال العطار يتمنى لو أنه يلتقي اليوم جميع معارفه، الذين أحبهم والذين كرههم، إنه مستعد أن يحبهم جميعا دون استثناء، إنه يريد استرجاع الماضي بإيجابياته وسلبياته بلحظاته السعيدة والعسيرة.

ساورته مجموعة من التساؤلات عن الأصدقاء والرفاق، عن الخونة والجبناء، عمن حاول تغيير التاريخ والعبث به وتحويله لصالحه، عمن سرق انتصاراته وتضحياته ومبادئه وانجازاته.... إنها الحقيقة المرة التي لم يتمكن من استيعابها: إعراض شعبه عن الشرق واللهاث على الغرب. إنه يتساءل وبحرقة:

- أليس نحن من سبق ورفض من الغرب كل شيء، تاريخه، لغته، وكل أمر يتعلق به من قريب أو بعيد؟ ما هذا الإقبال عليه الآن؟ وما هذه التبعية للاستعمار القديم والجديد؟

- ها هي الهجرة الجديدة نحو الاستعمار، نحو ثقافته ولغته وحضارته... فهل الشعوب الضعيفة مهيأة دوما للاستعمار كل مرة بشكل؟ إنها التبعية المطلقة باسم العولمة والإنسانية¹⁵.

- إنه يتأكد يوما بعد يوم أن بعض الناس أصبحوا قطيعا من الغنم، يتحركون بعصا راع ما نحو الوجهة التي يريد لهم، ومهما كان نوع هذا الراعي وشكله ومضمونه حتى لو كان قبيح الشكل، فارغ المضمون، عاريا من كل قيمة...¹⁶

يستفسر: "ما الخلل الذي أصاب الإنسان والشعب؟ هذا الشعب الذي قالوا عنه بعد الاستقلال مباشرة أنه الوحيد البطل..." "لا توجد زعامات فردية أبدا، الشعب كله بنسائه ورجاله وشبابه وشيوخه وأطفاله، هو وحده البطل والزعيم"¹⁷.

يرى كمال اجتماع بين اليقظة والنوم يجمع الأبطال ابتداء من: ماسينيسا، الكاهنة عقبة بن نافع، عبد القادر بن محي الدين، أحمد باي، بوعمامة، لالا فاطمة، بن باديس، بن بولعيد، بن مهيدي، زيغود، عميروش، لطفي... تعلو محياهم مسحة من الغضب الهادئ والأسى المستكين، وكأن شيئا عزيزا غاليا سرق منهم، شوّه، تمزّق، أهين... إنهم أشخاص فرقهم الزمن، وجمعهم مضمونا حيا وغضبا متوقدا وهدفا موحدًا¹⁸.

وتصل الرواية إلى نهايتها ببث كمال شجونه لرفاق عمره الذين رحبوا بالموت على أنها شهادة وسكن بالجنة مع الأنبياء والصديقين، وخسر هو الرحيل معهم، فقد كان أجمل رحيل ليترك في غربة لا هي بالجنة ولا هي بالنار، ولا هو بالشجن، وبينه وبينهم ميثاق كبير ورحلة شاقة نحو نهاية لا ينتهي فيها الشوق والحنين للقياهم.

7. الأمثال الشعبية من خلال رواية جسر للبوح وآخر للحنين:

لقد حاولت ونيسي من خلال هذا الابداع العودة إلى الماضي والحنين إليه من أجل ترميم شروح الذاكرة، عن طريق ملمة هموم الفرد الجزائري المعاصر، ورصد التحولات الجذرية الحاصلة في القيم الفكرية والاجتماعية والثقافية بوجه عام.

ينهل هذا الابداع الأدبي من التراث الشعبي بصفة عامة، وبناء على ذلك، سنقوم في دراستنا هذه استخراج الأمثال الشعبية الجزائرية الموظفة والبحث عن القيم الإيجابية المتضمنة، انطلاقاً من النصوص الروائية التي بين أيدينا، وذلك على النحو الآتي:

- يموت الماشي ويبقى الراشي¹⁹:

يقوم هذا المثل الشعبي في جانبه الشكلي على المفارقة التي ينضوي تحتها معنى التضاد وازدواجية المعنى، فهو يحمل دلالة مزدوجة تحيلنا إلى أن الأدبية تستحضر خلاصة التجربة السالفة وتعيد انتاجها من جديد من خلال الموقف الحاضر الذي يحمل أحداثاً مشتركة.

وموضوع المثل الشعبي الذي بين أيدينا يخص هادم اللذات ومفرق الجماعات كما قال عنه سيد البشرية جمعاء محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه، وهو الحقيقة المطلقة التي لا يختلف فيها اثنان: إنها نهاية الحياة وحتمية الموت على بني البشر، كل بأجله ووقته المحدد، بسبب أو بدونه، إنه الأجل المقدر في علم الأزل عند المولى عز وجل.

يقول كمال العطار لأمه عندما حدثته عن موت أبيه الطريح الفراش: "من أدراك يا أمي أنه سيموت قبلي أو قبلك؟ إن الموت والحياة بيد الله، والمرض مهما كان خطيراً لا يميت، الأجل هو الذي يميت"²⁰، فتبرد عليه الأم: "ونعم بالله يا ولدي صدقت، إن المثل الشعبي يقول: ((يموت الماشي ويبقى الراشي)) ولا دخل لنا بقضاء الله وقدره، فقط هكذا تعود الناس أن يفكروا مع المريض، أن يلبوا رغبته، ويريحوه وهو في مثل هذه الحال من الضعف"²¹.

والتأمل في هذا المثل الشعبي الجزائري، نجد أن الروائية حاولت توظيفه لتبث قيمة دينية في ثنايا نصها الأدبي، لتذكرنا بأنه لا يعلم الغيب إلا الله فالموت بالأجل لا بالمرض وأن رؤية الإنسان طريح الفراش لا يدلّ على قرب أجله، فكم من مريض عاش حيناً من الدهر، وكم من صحيح مات من غير علة.

وقد عمدت الروائية إلى اختيار هذا المثل الشعبي بغية معالجة قيمة الوعي بقضاء الله وقدره، وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن توظيف الكاتب في روايته المثل الشعبي يمنح المتن الروائي شحنات تعبيرية إيمانية تجعله يعيد النظر في بعض القضايا المصيرية التي يغفل عنها في خضم زحمة الحياة وقتها وماديتها القتالة لمشاعر الفرد وأحاسيسه وقيمه ومبادئه النبيلة.

- التجارة شطارة²²: (مرة ربح ومرة خسارة)

أصل هذا المثل الشعبي "التجارة شطارة، مرة ربح ومرة خسارة"، وأول ما يلاحظ في جانبه الشكلي هو الإيقاع الصوتي والأثر الفعّال الذي يتركه في آذاننا وأذهاننا، وهو ما يسمى بالسجع، كما نلمح ازدواجا بين طرفي هذا المثل، وهو ما أسميناه سابقا بالمفارقة. وقد جاء المثل الشعبي في شكل تقريرى ومحسوم مسبقا لا جدال في أمره " التجارة شطارة"، وهو يدعو إلى التفاني في العمل من أجل الربح المادي والمعنوي، تضمن قيمة اقتصادية وأخرى اجتماعية، كونها تعين الفرد على العيش بكرامة في هذه الحياة الصعبة. وهو بهذا ينبذ ضمينا الكسل والتواكل في كسب الرزق.

وقد جاء هذا المثل على لسان عتيقة أم كمال التي كانت تحيك النسيج وتخيطة ملابس رقيقة جاراتها، ويقوم عمي الطاهر ببيعه، ويعطي لكل واحدة منهن حقها بعد البيع. حيث تقول: "إن عمك الطاهر هو الخبير بالعمل، لأنه تاجر أيضا، ويحفظ لنا حقوقنا طول الوقت، أبوك رجل طيب فوق العادة، ولا يفقه في المزايدات والمغالبات مع التاجر، التجارة شطارة كما يقولون".²³

وقد أرادت الأم من وراء هذا المثل الشعبي الجزائري أن تعلّم ابنها قيمة التجارة وأهميتها في المجتمع، وكذا مواصفات التاجر الشاطر الناجح في عمله.

يعكس هذا المثل الشعبي قيما متنوعة اقتصادية واجتماعية وأخلاقية راقية، وقد تمثلت القيمة الاقتصادية في أن الإنسان يميل إلى ما يحقق له محققا له المنفعة الفردية والجماعية، في عملية تبادلية تقوم على: الأخذ والعطاء- البيع والشراء- الاستهلاك والانتاج من خلال فضاءات اقتصادية حيث يشكل الجانب الاقتصادي أحد الأنظمة المهمة في بناء وتشكيل القيم البناءة في المجتمع.

والمقصود بالشطارة هنا، التبكير في العمل، ويدخل هنا عامل الوقت كعنصر حاسم في مسألة تحقيق المنفعة، وزيادة الرزق والبركة فيه، وهو ما يؤكد أهمية الوقت وقداستها في حياة الفرد والمجتمع.

والقيمة الاجتماعية تكمن في الاعتماد على النفس والأخذ بالأسباب المؤدية إلى النجاح في الحياة لتحقيق الربح الفردي والجماعي. ليعيش الفرد بكرامة وعزة نفس وبالتالي يستطيع رفع مستواه المعيشي ومستواه في السلم الاجتماعي، ولا يعيش عالة على المجتمع.

أما الثالثة، فهي القيمة الأخلاقية، والتي يمكن أن نلتمسها في الدعوة إلى تهذيب السلوك الفردي والذي يؤدي بدوره إلى تهذيب السلوك الاجتماعي ليتخلص المجتمع من الكثير من السلوكيات السلبية والآفات الاجتماعية كالسرقة والرشوة أكل مال اليتيم، وأكل المال الحرام عموما.

لنخلص في الأخير إلى القيمة الدينية والتي جاءت بمثابة تحصيل حاصل بحيث صنع المثل الشعبي قاسما مشتركا بينه وبين ما دعا إليه الشرع، وذلك من خلال قول الحبيب المصطفى صلى الله عليه

وسلم: "اليد العليا خير من اليد السفلى" وغيرها من الأحاديث النبوية التي تدعو إلى الاجتهاد في كسب الرزق.

- الغالي طلب الرخيص²⁴:

يقوم هذا المثل على طرفي نقيض، فينتج عنه تأثير إيقاعي في نفس المتلقي وقد استطاع هذا المثل الشعبي رغم اختصاره أن يروج لقضية هامة جدا تروق للجماعة الشعبية والتي نجدها تهتم بكل ما يساعد على انسجام وتجانس الأفراد داخل المجتمع. إذ يمكن القول أن الحياة الإنسانية عامة تقوم على مساحة كبيرة من الحب والود والتسامح للحفاظ على شبكة العلاقات الاجتماعية.

ويرد هذا المثل الشعبي في كثير من الأحيان في مواقف التودد والمجاملة خصوصا إذا كان الشخص المتودد إليه تفوق معزته ومكانته أي غال.

فهو مثل يشعرك أن الدنيا كلها ترخص وتهون أمام هذا العزيز، الذي مهما طلب كان له ما أراد، وخير من يضرب به المثل في هذا الأمر هي الأم، فهي التي يرخص أمام أبنائها كل غال، ولا يغالي إذا قلنا أنها كالشمعة تذوب لتنير دروب أبنائها. وهو ما يفسر قول الحبيب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه: "الجنة تحت أقدام الأمهات" نظرا للدور الخطير الذي تلعبه في حياة أبنائها، والرسالة السامية التي أهلتها لأن تحظى بهذه المكانة.

فها هو كمال يخاطب أمّه ويقول لها: "بيدو أنك غنية اليوم، ما رأيك في حق تذكرة سينما اليوم، يقولون أن هناك فيلما جميلا، يعرض في صالات المدينة". وكأي أم لا يغلو على قرة عينها شيء فتجيب "الغالي طلب الرخيص"²⁵.

إن ما دعا أم كمال لقول هذا المثل هو غريزة الأمومة وفطرة الله التي فطرها عليها في حب ابنها وتعلقها به، وخاصة أنه الابن الوحيد للأسرة، فطلب كمال لتذكرة سنيما لا تعني لها شيء، مقابل ما تكتنه له من حب وودّ، فمهما طلب هذا الولد تجد الأم مستعدة لكل التضحيات من أجل أن تلبى حاجته.

إنها الأمومة، نعمة من نعم الله على المرأة في هذا الوجود، فقد انفردت بمكانة متميزة في جميع الشرائع ومختلف الأعراف، لما انمازت به من غريزة العطاء ولمّ الشمل، وإسداء النصح، والحرص على البذل دون انتظار المقابل، فعُدّت المدرسة الأولى بامتياز.

لقد احتفت الأمثال الشعبية بقيمة الأمومة، وهي قيمة ثابتة في المخيال الشعبي ونموذج يحظى بالاحترام والتقدير في المجتمع الجزائري، فهي تشكّل قيمة اجتماعية ونفسية وأخلاقية في عقلية الإنسان العربي، كما تنطوي على قدرة غير محدودة على العطاء والتفاني²⁶ فعلى نفس القدر من الجلال الذي تحتله الأم في واقع الحياة، يأتي التصوير المعبر²⁷ في المثل الشعبي والتراث الشعبي

الجزائري عامة، فتأخذ الأمومة دورها ومكانتها في جميع الأوساط والشرائع والديانات، وهي القيمة التي لا يقع عليها التباين والتفاوت.

- يخلق من الشبه أربعين²⁸:

الخالق المبدع هو الله عز وجل، خلق الإنسان وسخر الكون كله لأجل خدمته وسعادته وخلق الموت والحياة، خلق الإنسان والشبيه به، وله القدرة على أن يخلق أكثر من شبيهه قدرة لا حدّ وعدّ لها. وهذا الأمر يعرفه عامة الناس وخاصتهم في المجتمع الجزائري، هذا المجتمع المتدين بطبيعته وفطرته السليمة، وقد عبّر هذا المثل عن فهم الناس واستيعابهم ووعيمهم الشعبي بأمور الدين، ويضرب عندما نجد شخصين على درجة كبيرة من التشابه، وقد ربط المخيال الشعبي هنا قدرة الله بالعدد "أربعين"، هذا الرقم الذي رفضه البعض واستحسنه البعض الآخر.

فقد رأى الكثير أن هذا المثل الشعبي حصر قدرة الله عز وجل في عدد محدود وهو مخالف لما يوحى به اسم الله القادر سبحانه وتعالى، في حين هناك من أخذ الرقم على محمل المبالغة بالعدد لا غير، وقد استشهدوا بالحديث النبوي الشريف الذي قال فيه حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم: "من عاشر قوما أربعين يوما أصبح منهم"، و"عيار الشبع في الطعام أربعين لقمة". لهذا فالعدد "أربعين" له شأن كبير في التفكير البشري والوعي الشعبي على السواء.

وقد جاء على لسان البطل كمال العطار وهو يخبرنا بدرجة الشبه بينه وبين أمه مقارنة بأبيه: "قالوا أن (الله يخلق من الشبه أربعين) ربما كان هذا صحيحا لكنه شبه غير كامل أبدا، لا بد من التمييز، وإلا فإن روعة الخالق والإبداع تصبح معدومة"²⁹.

ثم يعقب: "إنني لا أشبه والدي سوى في ملامح وجهه، وطول قامته والشامة التي تنفرز بارزة في خدّه الأيسر، أما غير ذلك فإنني لا أشبهه في شيء"³⁰.

"إن كمال في نفسه يعتز كثيرا لأنه يشبه أمّه أكثر مما يشبه أباه، وهو لا يدري لماذا؟ لكنه شعور جميل وهو يرى في وجهه الوسيم بعض ملامح أمه العزيزة، لولا هذه الشامة السوداء البارزة في خده الأيسر، والتي لم يورثها لأحد"³¹.

تحاول الأديبة زهور ونيسي أن تبين لنا من خلال توظيفها لهذا المثل وعي الجماعة الشعبية بقدرة الله عز وجل في الخلق والابداع والتمييز أيضا، وهي من أمور الدين، والذي يعرف "على أنه نسق من الاعتقادات والممارسات، والذي من خلاله تستطيع جماعة من الناس أن تفسروا وتستجيب لما تشعر به أنه مقدس وفوق طبيعي"³².

كما ترمي الكاتبة إلى أن إدراكهم لأمور دينهم واستيعابهم له ووعيمهم به، هو ما يسمى بالتدين الشعبي الذي يقول عنه عبد الباسط عبد المعطي بأنه: "إدراك الناس وفهمهم واستيعابهم لقواعد الدين

وأركانها وأوامره ونواحيه في المعاملات بين البشر وفي العبادات... بإيجاز شديد يعبر التدين الشعبي عن الوعي الشعبي بالدين"³³.

وهكذا فإن الأمثال الشعبية من الفنون القولية التي عرفت رواجاً كبيراً في المجتمع الجزائري، والتي تعبر عن مكنون القيم الأخلاقية والثقافية والاجتماعية من خلال الاستعمال اليومي لها، فهي تعدّ المفتاح لدراسة الذهنية الجمعية للمجتمع الجزائري.

- ترك الجمل بما حمل"³⁴:

يوحى هذا المثل الشعبي بأن المتحدث عنه قد عزف عن الدنيا وزهد فيها، وقد كان لعلي ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم كرم الله وجهه قولاً في ذلك: "يا دنيا طلقتك بالثلاث" متعففاً عن ملذاتها وشهواتها وأطماعها، لأنها دينئة فاتنة فانية.

لكن المثل في هذه الرواية قيل في وصف الخالة زوينة وهي إحدى ساكنات حي القصبة العريق، وكانت بيتها مقصداً لمعظم نساء الحي بغية قضاء حاجاتهن وتحقيق طموحن إنها تقوم بهذه الوظيفة خدمة للناس دون مقابل، لأن حالتها المادية ميسورة: "إنها لا تريد المال الكثير، ولا الهبات ولا الهدايا، إنها مكفية اقتصادياً مات زوجها وترك لها الجمل بما حمل"³⁵.

إن زوج خالتي زوينة فارق الحياة ورحل إلى جوار ربّه تاركاً لزوجته ميراثاً يسد حاجتها وزيادة، وهي بذلك لا تحتاج عملاً تسترزق منه أو وظيفة تساعد على كسب قوتها، وما تقصده من وراء هذا العمل هو مقاسمة الناس همومهم ومحاولة رفع الغبن عنهم قدر المستطاع.

لقد استعملت الروائية هذا المثل أن الإنسان مهما عاش في هذه الحياة ومهما كسب من ملك، فإنه راحل لا محالة وتارك كل ذلك وراءه، وأن ما سيحمله معه عند الرحيل هو عمله الصالح أو الطالح، الذي يجعل منزله الأخروي إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار. وأن اللهات وراء جمع الأموال بالطرق المشروعة وغير المشروعة لن تفيده أثناء مغادرة الدنيا.

لقد استعانت الكاتبة بالأمثال الشعبية لما "لها أهمية كبرى في حياة الشعوب، فهي مقدمة كنوزها الفكرية، تجلب الاهتمام، وتوضح المقصود، وتثير الخيال وتعين على الفهم، فتمتع النفس والفكر والمشاعر، وتعكس عادات أصحابها وسلوكهم وأخلاقهم وتقاليدهم بقلّة لفظها وكثرة معانيها التي تعبر عما تكنه الشعوب في أعماقها"³⁶. فقد اختزلت إلى جمل مختصرة اغتنمتها الأدبية من أجل تفهم قضايا مجتمعيها.

وإن اتصاف المثل الشعبي الذي بين أيدينا بالتكثيف والاختزال أعطاه مفاتيح كينونته الإشارية والجمالية معاً. فهو لا يدخل في تفصيلات من شأنها أن تضع أو تموّ فكرته الأساسية، لذلك كان

يقتصر على الحد الأدنى منها، ليستقطب الفكرة بعمق، لكنه في الآن ذاته يوجي دون أن يصح³⁷، فيصيب المعنى المراد إيصاله للمتلقي في قمة البلاغة.

وقد استطاعت الكاتبة بهذا التوظيف إضافة لمسة جمالية وفنية رائعة لعملها الإبداعي بالإضافة إلى الرسالة السامية التي تسعى إلى بثها في ثنایا رائعتها ومن تمّ إيصالها للفرد والجماعة.

- عادت المياه إلى مجاريها³⁸:

إن تكثيف المعنى وإصابته واختزال المبنى في المثل الشعبي يعني انفتاحه على باحة التأويل، إذ إن من المبادئ الرئيسية في هذا المجال- أو كما قال النفری- إنه "كلما ضاقت العبارة اتسع المعنى" ولا سيما أن المثل الشعبي قائم- أصلا- على توظيف المفارقة بشكل مكثف³⁹. كما أن فيه صرف الخطاب عن معناه الظاهر، إلى معنى ضمني أبعد لا تصل إليه العقول المتحجرة.

ويقال هذا المثل عادة بعد خلاف أعقبه صلح، وبعد جفاء أعقبه حبّ وودّ، والعلاقات الأسرية والعائلية أكثر عرضة لهذه الخلافات، لكنها مهما بلغت درجة تأزمها إلا أنها تعود لا محالة إلى أصلها وطبيعتها.

كما يمكن أن يقال هذا المثل بين الأصدقاء والأحباب عند عودة العلاقات إلى طبيعتها بعد أن عصفت بهم الريح وفرقت بينهم. وقد ورد هذا المثل في الرواية على لسان كمال العطار حينما ألحّت عليه أمه بزيارة الولي سيدي غراب حيث قال لها: "لقد ذهب كل شيء لحاله (وعادت المياه إلى مجاريها) ولم يبق من تلك المشاكل سوى الذكرى، الذكرى الباهتة"⁴⁰، وذلك حتى يوضح لها أنه استقر على تحقيق حلم أمه في الزواج بالفتاة نفيسة بعد أن قطع صلته مع راشيل الفتاة اليهودية التي كان يحبّها ويتمنى الزواج بها، وذلك حينما قابلت حلمه واهتمامه بمستقبل العلاقة بعدم الاكتراث، إن ما كان يهّمها هو تلك اللحظات الآنية السعيدة التي تكون فيها معه، وقد حاول كمال أن يدخلها في دين الإسلام، إلا أنها استغربت وحولت الأمر إلى دخوله هو في دين اليهود، فكان الأمر مدعاة لاتخاذ الموقف الحاسم في علاقة كانت فاشلة من البداية، إلا أن الحب قد أعمى بصيرته عن ادراك ذلك.

إنّ ما رمت إليه الساردة من خلال هذا المثل أن حلم كمال في الزواج من الفتاة اليهودية راشيل سيكون أكبر خطأ أوقع نفسه فيه، وحبّه لها كان بمثابة طيش شباب ولهو طفولي وعاصفة هوجاء أملت به، لكنه سرعان ما فطن إلى خطورة الموقف، وأن موافقته على الزواج من إحدى بنات حيّه ووطنه كانت بمثابة استدراك الأمر وعودة المياه إلى مجاريها.

لقد كانت أحداث الرواية بمثابة القلب النابض للمجتمع الجزائري، فعبرت عن حياتهم اليومية ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وطريقة تفكيرهم مستعينة في ذلك على الأمثال الشعبية التي هي تجسيد لقيم وتقاليدهم ومعتقدات وسلوك الشعب الحقيقية، لأنها انعكاس للبيئة التي نشأ فيها⁴¹.

فأحدثت مزجا بين الذاكرة الجمعية والخطاب الحدائي في حلة بهية تحمل فلسفة للحياة والعيش في واقع أفضل خال من التبعية والتقليد للعالم الغربي.

7. الخاتمة:

- من خلال ما سبق، يمكن تتويج هذه الورقة العلمية بالنتائج الآتية:
- لقد سعت الرواية الجزائرية عبر مراحل تطورها نحو التجديد والحداثة في الإبداع وذلك من خلال الاشتغال على المثل الشعبي واستثمار جمالياته الفنية ليظهر في حلة عصرية جديدة، فكان الرابط الواصل بين الأصالة والمعاصرة، الهوية والانفتاح لتمتد أواصر العلاقة بين أفراد الأمة الواحدة عبر الزمن بعيدا عن صراع الأجيال.
 - إن توظيف الرواية للأمثال الشعبية في روايتها جسر للبوح وآخر للحنين لم يكن اعتباطيا، وإنما بغرض إحياء ما أبدعه السلف ومحاولة استخراج الكنوز والجواهر الكامنة أو المغمورة فيه من أجل استنهاض الهمم وصناعة القيم والعمل على ترسيخها وتثبيتها في عقول الجيل الحالي لبناء الشخصية السوية الفاعلة في المجتمع لما لها من دور في تماسك المجتمع وتطوره ورقيه ووقايته من الانزلاقات.
 - لقد التزمت المبدعة زهور ونيسي في رائعتها بقضايا شعبها، فعبرت عما تزخر به النفس البشرية من أفكار ومعتقدات وحقائق واقعية تلخص صراع الإنسان مع الواقع المعيش فكانت الأمثال وسيلة لبث مكنوناته وأحزانه ومسراته من خلال النصوص الأدبية، فكان دستوراً ينظم حياة الأفراد والجماعات في إطار العلاقات الاجتماعية ويصور مواقفهم إزاء مختلف قضايا الحياة والحكم عليها.
 - لقد حظيت الأمثال الشعبية بالمكانة اللائقة، لأنها جاءت معبرة عن "الحاجات والرغبات والميول والطبائع، والعلاقات والحكمة والدين والمصير وغيرها من المواضيع التي تصادف مسيرة حياة الإنسان الجسدية والفكرية والروحية"⁴²، فاحتفظت بقوتها وبريقها عبر السنين، واعتبرت منبعاً لاستقاء الحكمة والخبرة الحياتية.

الهوامش:

- ¹ - زهور ونيسي، جسر للبوح وآخر للحنين، موفم للنشر، الجزائر 2013.
- ² - عز الدين اسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، 2013، ص 200.
- ³ - السيد نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج 2، دار هومة، الجزائر 1997، ص 97.
- ⁴ - جمال بوسلهم، الحداثة وآليات التجديد والتجريب في الخطاب الروائي الجزائري- حارسة الظلال لواسيني الأعرج، رسالة ماجستير في الأدب العربي، معهد اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والفنون، جامعة السانبا- وهران- الجزائر 2008- 2009 ص 22.
- ⁵ - دغان أم سهام، النقد والأدب- دراسات أدبية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 41.
- ⁶ - حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، منشورات اقرأ، ط 2، بيروت- لبنان 1980، ص 11.

- ⁷ -ريتشارد دورسون، نظريات الفولكلور المعاصرة، تر. محمد الجوهري وحسن الشامي، دار الكتب الجامعية، القاهرة- مصر 1972، ص86.
- ⁸ - أحمد أمين، قاموس الأمثال والتقاليد والتعابير المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر 2008، ص61.
- ⁹ -Leach. The Standard Dictionary of Folklore Mythology And Legend. P431.
- ¹⁰ - شعلان إبراهيم أحمد، الشعب المصري في أمثاله العامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972، ص5.
- ¹¹ - أميرة الديب، أسس بناء القيم الخلقية في مرحلة الطفولة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر 2002، ص15.
- ¹² - محمد أمين عبد الصمد، القيم في الأمثال الشعبية بين مصر وليبيا، دراسة مقارنة في الانثروبولوجيا الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2014، ص31.
- ¹³ - السيد فؤاد البهي، علم النفس الاجتماعي، دار الفكر، القاهرة- مصر 1994، ص82.
- ¹⁴ - جمال بوسلهام، الحداثة وآليات التجديد والتجريب في الخطاب الروائي الجزائري، ص34.
- ¹⁵ - زهور ونيسي، جسر للبوح وآخر للحنين، ص201- 202.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص209.
- ¹⁷ - نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁸ - م ن، ص254.
- ¹⁹ - م ن، ص75.
- ²⁰ - م ن، ص ن.
- ²¹ - م ن، ص ن.
- ²² - م ن، ص88.
- ²³ - م ن، ص ن.
- ²⁴ - م ن، ص89.
- ²⁵ - م ن، ص ن.
- ²⁶ - حجازي مصطفى، التخلّف الاجتماعي- سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، 2001، ص233.
- ²⁷ - وادي طه، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف، ط4، 1998، ص278.
- ²⁸ - زهور ونيسي، ص85.
- ²⁹ - م ن، ص ن..
- ³⁰ - م ن، ص ن.
- ³¹ - م ن، ص86.
- ³² -Peter Berger, Second Tsoughts on Defining Religion, journal for the Scientific Study of Religion, 13, no 2, 1977, p28
- ³³ - عبد الباسط عبد المعطي، التدين والابداع، الوعي الشعبي في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر 2001، ص24.

- ³⁴ - زهور ونيسي، ص 115
- ³⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ³⁶ - رابح العربي، أنواع النثر الشعبي، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة- الجزائر، ص 35.
- ³⁷ - محمد أمين عبد الصمد، القيم في الأمثال الشعبية، ص 145.
- ³⁸ - زهور ونيسي، ص 99.
- ³⁹ - محمد أمين عبد الصمد، القيم في الأمثال الشعبية، ص 145.
- ⁴⁰ - زهور ونيسي، ص 99.
- ⁴¹ - محمد صفوت، الأمثال الشعبية، دار مصر للطباعة، مصر، ص 5.
- ⁴² - ميشال مراد، روائع الأمثال العالمية، دار الشروق، بيروت- لبنان 1984، ص 4.